مقتطف من «موسم الأشباح»

كتابة فاتن عبّاس، ترجمته عن الإنجليزيّة ياسمين حاج

فتحت دينا شنطة الكاميرا في الباحة وتأبّطت الترايبود وتوقّفت لترفع بصرها إلى الأعلى. كان الضوء ناعمًا يداعب الأسطح: الشرفة المسقوفة بالقشّ الموجودة في آخر المجمّع وحيطان غرفة التخزين الطينيّة وخيش الخيمة الشاحب بجانب المكتب. يندر هذا النوع من الضوء – فهو وليدُ غشاوة غيوم الصباح، قد تتبدّد في أيّ لحظة – وهكذا هروَلت عبر الباحة إلى المطبخ، حيث وجدت الصبي مصطفى يُكنِّس.

ألقى نظرة سريعة إليها وتبسّم ومن ثمّ عادت عيناه إلى العمل. لم يتبقَّ كثيرٌ من الرسميات بينهما. ولم يكن عليها السؤال، كما اعتادت، إذا ما كان بإمكانها تشغيل الكاميرا. كان يعرف سبب وجودها، أنّ عملها يكمن في مراقبته، وقد تقبّل هو ذلك، ولو ببعض العجب.

أفرغت حقيبتها من حاجيّاتها – سمّاعات الرأس وقصاصة ورق لموازنة اللون الأبيض وبطاريات – ومن ثمّ شغّلت الكاميرا وركّزت الإطار حول الصبي الذي يكنس الأوساخ. تقاطر العرق عبر طيّة عينها المغلقة وتفرّجت عبر العين الأخرى على حركة ذراعيه وعلى شعاع الشمس الغائم الذي يتساقط عليهما هكذا بطريقة تعكس جلده الناعم على خلفيّة حائط المطبخ الطيني البنّي من ورائه. عند قدميه تصاعد الغبار ملتفًّا مضيئًا من الأرض غير المستوية ومن ثمّ انبسط بحركة مُظلَّلة، فتهزُل الغيوم ومن ثمّ تتلاشى في نسيم الصباح.

"انظري"، قال مظلِّلًا عينيه. تفرّجت عليه دينا عبر العدسة. "ستمطر لاحقًا". وبقيت يده فوق جبينه للحظة، ومن ثمّ مدّ يده ليتناول المكنسة مجددًا.

في الخلفيّة تمكّنت من سماع لحن موسيقى السّالسا – بصداها الآتي عبر سمّاعاتها، كأنّه آتٍ من مكانٍ بعيد – ينبض في محطّة الراديو، ومن ورائه صوت المياه المتراشقة في الشارع. وتذبذبت رائحة حرق الطوب وروث الحيوانات، حملها نسيم النهر، ومع ذلك استمرّت بالنظر، منجرفةً بين الوجه واليدين والغبار والمكنسة

مفردات
Mophradat

المتحرّكة، وانسحبت في التفرّج إلى درجة أنّها لم تعد تشعر بأنّ النبض في ذراعها المتوجّعة ألمًا وإنّما إيقاعًا وحسب.

/ / /

في المكتب جلس أليكس على مقعد منخفض جدًّا بالنظر إلى ارتفاع المكتب المُرتجَل، وأمامه خريطة مفرودة. أمّا الغرفة فكانت الوحيدة المبنيّة بالباطون في المجمّع. كانت ضيّقة، بالكاد تتّسع لطاولة وكرسيّ ووحدتي ترتيب ملفّات مدعّمتين بالحائط في يسار الغرفة. وكان هناك ملصقٌ معلّق في الأعلى يُظهر لوغو المنظّمة: كرة أرضيّة بيضاء تحلّق فوق راحتي يد خضراوين مرفوعتين إلى الأعلى، كما لو أنّهما تصلّيان.

كان أليكس قد أمضى صباحه في قراءة التقرير الزراعي، لكنّه من مللّه فتح إحدى الخرائط المتروكة على سطح المكتب. لم يكلّ أبدًا من النظر إلى الخرائط. مال إلى الأمام متّكئًا على كوعيه وتقفّت عيناه الحدود الشماليّة، هي خطٌّ مستقيم يمتدّ عبر الصّحراء الكبرى. وانساقت نظرته إلى أسفل، لاحقةً النهر إلى منبعه في تعرّجاته عبر حزام الصحراء السميك إلى العاصمة، حيث انشطر إلى قسمين، منعطفًا بفرعٍ إلى الأعلى نحو المرتفعات الإثيوبيّة في أحد الاتّجاهات وبفرعٍ آخر إلى الجنوب نحو «بحيرة ڤيكتوريا». وتوقّف عند نقطة تحدّد البلد الموجود فيها هو الآن – سرايا، الواقعة عند الحدود بين الشمال والجنوب. هنا تندمج الصحراء في المروج، فتغمقُّ مساحات من الأخضر الشاحب وتزداد كثافةً كلّما اقتربت من الجنوب الاستوائيّ من البلاد.

لقد قدم إلى هذه البلدة ليرسُمَ خريطةً، كانت منظّمته قد بعثته ليخطّط الأراضي الزراعية والقرى ومسارات الرعي وآبار المياه وخطوط المقاطعات كجزء من مهمّة حصد المعلومات. والخرائط الموجودة غير مُحدّثة، كان قد وضعها البريطانيون قبل أكثر من خمسين عامًا ومازالت السلطات المحلية تستخدمها؛ وثمّة حاجة إلى خريطة جيّدة لإرشاد المنظّمة في مساعيها لإعانة المنطقة.

كان بودّه أن يبدأ، لكنّه وبعد أسبوعين من إقامته كان لا يزال ينتظر التصريح الرسمي من السلطات. أمّا معدّاته لمسح الأراضي والتي كان من المفترض أن تصل قبل أسبوعٍ من الخرطوم فكانت قد شُحنت إلى البلدة الخطأ، وتبعد عن مكانه مئات الكيلومترات، والآن فقط أصبحت في طريقها إليه.

مفردات
Mophradat

حجب الظّل الضوءَ الآتي عبر النافذة المقابلة له وعندما نظر إلى الأعلى رأى ويليام، المترجِم، يلوحُ في الإطار.

لمعت أسنانٌ في ابتسامة تحت وميض العيون. "صباح الخير"، قال ويليام.

حتّى من بعد بضعة أمتار تمكّن أليكس من شمّ عطر ويليام. كان قد ابتدأ برشّه مؤخّرًا، وربط أليكس الأمرَ بوجود طبّاخة جديدة في المجمّع.

رفع أنفه في الهواء وتشمّم. "ما هذا؟" وصمت واشتمّ مرّة أخرى. "هل تحوّل مُترجِمي إلى شجرة ليمون؟"

تبسّم ويليام ابتسامة عريضة واحمرّ وجهه المطوَّل الوسيم. "إنّه عطرٌ جديد"، قال بلكنة رخيمة، أطال فيها لفظَ الحركات. "لعلّ قليلًا من العطر يُفيدك أنت كذلك."

وخطر لأليكس بأنّه لم يترك انطباعًا حسنًا. فقد كان جالسًا في إطار النافذة بدون قميص وقد نما الشعر على ذقنه، شعره الغامق يتدلّى بحلقات رطبة حول أذنيه. وجلده المحروق من الشمس يتقشّر من على أنفه. وبالمقابل كان ويليام آيةً في الأناقة: فلمعَ قميصه ببياضه الغضّ مقارنةً بالجدران الطينية الباهتة للبيوت خلفه. وكان شعره محلوقًا حتّى جلدة رأسه إلى حدّ أنّه أصبح من شبه المستحيل تمييز الخطّ الذي يفصله عن جبينه الداكن العريض.

"هل من أخبار؟" سأل أليكس. "عن التصريح؟"

"كلّا". قال ويليام. "لكن قريبًا، قد تأتي في أيّة لحظة."

وهي إجابة ويليام الأبديّة له.

"لقد مرّ أسبوعان. كم من الوقت عليّ الانتظار بعد؟"

وتضايق فجأةً من نظافة قميص ويليام الأبيض.

"سأكلّمهم غدًا مرّة أخرى،" قال ويليام، "لكنّني غير قادر على استعجال السلطات، فهم سيعوّقون الأمور أكثر إن ضغطتُ عليهم." ونهض من اتّكائه إلى الشبّاك. "سأكون في الداخل، نادِني لو احتجتني."

ابتعد عن المكان واختفى خلف الزاوية، قبل أن يتمكّن أليكس من قول أيّ شيءٍ آخر.

مفردات
Mophradat

/ / /

فتح ويليام البوّابة إلى المجمّع ودخله، مشى أمام النباتات وأطر العجلات القديمة وأكياس الرمل المكدّسة بجانب الباب. رأى دينا ومصطفى عند غرفة التخزين وسمع إيقاع اندفاع مكنسة مصطفى مثل مُرافقة لحنيّة لنبضات الموسيقى الإسبانيّة الخارجة من الراديو تحت الشرفة.

قرقع قلبه في قفصه الصدريّ. وكان قد أمضى ليلته يتقلّب في سريره يفكّر في ليلى – هناك، هنا، في عتمة المطبخ الباردة. كان قد خطّط وفكّر في ما هو مزمعٌ على فعله: دخول المطبخ والتلكّؤ هناك، متظاهرًا بالبحث عن كأسٍ من الماء، لبدء محادثة عن الطقس والمحصول ووصول البدو الموسمي. ومن ثمّ قد يخوض في أسئلة أكثر حميميّة: فيسألها أين تسكن وعن عائلتها.

توقّف عند حائط غرفة المكتب ونعّم قميصه الأبيض ومرّ بلسانه على أسنانه. منذ التقائه بليلى وهو لا يملك جسده، فهو موجود فقط في خياله عبر عيونها. والآن وفي ترقّبه لحضورها أدرك فجأةً أنّ رجليه طويلتين ونحيفتين وساحلتين كالجمل. أنّ أسنانه كبيرة أكثر من اللازم ويديه لزجتين، واللتين كانتا بعرض أفخاخ الطيور. وأنّ جلده غامض، بسواد المياه في ليلةٍ بلا قمر.

سحب نفسًا عميقًا واستدار يمينًا بمحاذاة حائط المكتب ونظر عبر المدخل إلى ظهر أليكس ومرّ بمحاذاة مزيدٍ من النباتات المزروعة في أصصٍ من براميل نفطٍ صدئة. لوّح إلى دينا ومصطفى في الطرف الآخر من الباحة واضطرابه في صدره يتعاظم. عندما وصل إلى باب المطبخ تصلّبت مشيته واتّسعت عيناه. وتشنّج فكّه في ابتسامة مهووسة. دخل على العمياني إلى البرّاد البرتقالي، وصبّ لنفسه الماء وشرب. غرغرت حنجرته وتمايلت الكأس وطقّت جوزة حلقه. وفقط عندما أسقط الكأس الفارغة لتقرقع على منضدة المطبخ وتفحّص المكان حوله أدرك أنّ ليلى لم تكن هناك.

/ / /

"ما حال التصوير معك؟" أتى السؤال بدون مقدّمات فكان كالكهرباء عبر سمّاعات الرأس وباغتها.

مفردات
Mophradat

لم تُجِب، لكنّها شعرت بظلّه يتلكّأ. وأخيرًا ضغطت على زرّ إيقاف التسجيل وسحبت السماعات من أذنيها. وكانت آخذة بلحاق مصطفى حول المجمّع كلّ الصباح، والآن انتهى بهما الأمر بقرب السريرين في الباحة، هو جالسٌ على مقعد بركبٍ مبتلّة أمام قصعة معدنيّة مليئة بشراشف منقوعة في مياهٍ مبقبقة، وهي مقرفصة مقابله.

"لا بأس،" قالت وهي تنظر فوقها إلى أليكس. كانت ثمّة لهفة في الجوّ، نوعٌ من الأُلفة المتطفّلة في العيون الجريئة الرماديّة.

توقّف مصطفى عن الغسيل للحظة ونفض يديه في التراب، لينشّفهما. تطايرت قطرات المياه في كلّ مكان وحملت دينا الكاميرا بذراعها.

"عمّاذا يحكي؟ فيلمك الوثائقي؟" سأل أليكس.

حدّقت في الشعرات القليلة المتفرّقة على صدره ولاحظت هي شامة داكنة تحت حلمة شاحبة. أشاحت بنظرها، بدت محرجة أكثر منه من هذه الحميميّة الجسديّة.

"لقد بدأت بالتصوير للتوّ،" قالت.

"ولأيّ غرضٍ تصوّرينه؟"

"لا لشيء، أصوّر لنفسي."

صمت للحظة، محتارًا. "لكن ما الذي ستفعلينه به عند الانتهاء منه؟"

وهامت بعينيها إلى الأسفل إلى بدنه، إلى عرائه المسترخي.

"لا أعرف بعد، لكن ربّما لا شيء."

تفرّج على أصابعها تضغط على أزرار الكاميرا. كان شعرها مخبّأً بباندانا بمربّعات حمراء وصفراء. الألوان الغضّة الموجودة في ثوبها الكتّانيّ الثمين والمرتخي على جسدها الدقيق جعلتها تبدو كأجنبية ومن خارج هذه البلاد المليئة بأشخاصٍ يرتدون ملابس الفقراء – تيشيرتات رثّة وفساتين غير متّسقة وأحذية مغبرّة ومليئة بالثقوب. حاول مباشرةَ محادثةٍ معها في عدّة مناسبات لكنّها كانت متحفّظة بل حتّى قريبة من الفظاظة، ولم ينجح في استخلاص ما بعد بضعة معلومات أساسية عنها. عائلتها كانت

مفردات
Mophradat

من الخرطوم، وترعرعت هي في سياتل. تقيم في المجمّع لبضعة أسابيع فيما تعمل على فيلمها – ولها اتّفاقٌ ما مع المنظّمة في العاصمة.

"ما الفائدة من صنع فيلم، إن كان سيقبع مكانه؟"

أربكها السؤال، ففي هذه الأنحاء من الدولة لا مكانَ إلّا للضحايا والمنقذين.

"وخريطتكَ؟ ما الفائدة منها؟"

تنبّه إلى التحدّي في سؤالها لكنّ جوابه أتى بنبرة غير مبالية. "المسألة بسيطة. معلومات. كلّما ازدادت المعلومات في حوزتنا كلّما كان ذلك أفضل، أليس كذلك؟"

تبسّمت، وخلت ابتسامتها من الودّ.

أضاءت حافّة الحوض المعدني فجأة ولمعت، وأدركت هي أنّ الغيوم كانت آخذة بالتلاشي والشمس أقوى وأنّها لا تملك أكثر من بضعة دقائق قليلة جيّدة من ضوء الصباح لتصوّر فيها.

"هل تمانع؟" أومأت نحو مصطفى الذي كانت يتابع التواءات المحادثة المتوتّرة هذه، ولو أنّه لم يتابع الكلمات التي صعب عليه فهمها بالكامل.

"بالطّبع"، قال أليكس، فاتحًا يديه. "سأدعك تكملين". ابتعد عنها وراقبته هي في مشيته نحو مكتبه، وبدت ذراعاه ورقبته الداكنات كأنها تنتمي إلى جسدٍ آخر منفصل عن البدن الشاحب الذي يربط بينها جميعها.

/ / /

تسلّق مصطفى إحدى الأسرّة وحلّ شبكة البعوض من عواميد الخيزران التي تدخل في إطار التصوير ورمى الموادّ على الفرشة. واتجه نحو السرير الآخر وكرّر الأمر. وشارفت الظهيرة على الحلول. كانت دينا قد وضّبت كاميرتها وذهبت إلى المطبخ لتعدّ الغداء للجميع. ليلى لم تأتِ اليوم، ولم يأكل أحدٌ شيئًا طيلة الصباح.

سمع مصطفى فرقعة الزيت الساخن وفوارنه وتسلّلت رائحة الفلافل من مدخل المطبخ. كان الراديو مازال مفعّلًا تحت الشرفة، مع أنّ دينا كانت تستمع إلى محطّة الـ«بي بي سي»، وتسلّلت الآن إنكليزيّة مقدّم البرنامج الغريبة إلى الباحة، بكهربائه الساكنة والرنانة، فتموّجت الكلمات عبر مصطفى بغموض.

مفردات
Mophradat

كان اليوم الخميس ونهائيات كرة القدم ستجري الليلة. ولم يكن إلّا مكان واحد في كلّ أنحاء سرايا سيبتّها: كشك عمر للعصير في السوق، وستكلّف مشاهدة المباراة ثلاثمائة جنيه. لكنّ مصطفى لم يكن يملك ذلك المبلغ. فقد صرف جميع مدّخراته البائسة في الأسبوع الماضي لشراء البضاعة لمشروعه في السوق لبيع الملابس التحتية. وكان قد أعطى أمّه ما تبقّى من مرتّبه الشهري بقدر خمسة عشر ألف جنيه لقيامه بالمهام اليومية في المجمّع – التنظيف ورمي النفايات والغسيل. وكانت أمّه قد ترمّلت ولديها أربعة أطفال ولذا كانت تذهب معظم رواتبه لمساعدتها.

ولم يتبقّ لأصدقائه أيّ مدّخرات ليشاركوه ايّاها. أمّه كانت سترى في الصرف على المباريات تبذيرًا، وفي كلّ الأحوال كانت قد أعطته ألف جنيه في الشهر الماضي هديّةً لعيد ميلاده الثاني عشر، لكنّه سبق وصرفه. وراجع في رأسه لائحة الأغراض التي اشتراها: ثلاثة زجاجات كوكا كولا وقطعتين من المعجّنات الحلوة في السوق وزوج من نظّارات الشمس من صديقه ابراهيم – ثمانمائة جنيه بالمجمل. لكنّه لم يتمكّن من تذكّر أين صرف ما تبقّى من المبلغ.

حمل الشِّباك في ذراعيه وعبر إلى ممرّ الدخول الثانوي المستخدم للتخزين، حيث الهواء معبَّق ومغبرّ. كانت الكراتين مكدّسة عند حائط تصل حتّى السقف بعوارضه الخشبيّة. وقبعت أكوام من القماش المشمّع الأزرق في الزاوية فوق مولّد كهربائي قديم وتالف بغيارات صدئة. واصطفّت أواني طينيّة متصدّعة تحت طاولة خشبيّة إلى جانب الباب، فيما حُشرت بينها أغراض أليكس، وهي حقيبة ظهر زرقاء وحقيبة سفر صغيرة. على سطح الطاولة قبعت فرشة وأكياس بلاستيكيّة مليئة بأغطية الأسرّة والمخدّات والجرائد القديمة. حشا مصطفى شبكات الناموس في أحد الأكياس وخرج مجدّدًا متّجهًا نحو الأسرّة.

في طريقه أسرع ويليام خارج المكتب ولحق به. "أين ليلى اليوم؟" سأل بالعربيّة.

"لا أدري،" قال مصطفى. "لم تأت صباحًا".

"هل ذكرت لك أيّ شيء البارحة؟"

مفردات
Mophradat

هزّ مصطفى رأسه، فهو رأى كيف تلحقها عينا ويليام بتجوالها في المجمّع. وكيف كان يتعثّر برجليه الطويلتين كلّما انتبه إليها تراقبه.

واقترب ويليام، "هل يمكنك أن تكتشف أين تسكن؟"

فكّر مصطفى بالموضوع، فقد أحسّ باقتراب فرصة يمكنه اغتنامها. "ربّما، ولكن..."

"لكن ماذا؟"

"سيكون ذلك بمثابة شغل إضافي لأعمال المنزل."

حدّق ويليام فيه، ومن ثمّ ابتسم عندما فهمَ مُراده. فأخرج بضعة أوراقٍ نقديّة من جيبه الخلفيّ وعدّها.

"تفضّل، مائتي جنيه."

"أربعة"، قال مصطفى.

"أربعة؟! أنت حرامي."

"ستأخذ المسألة نصف يوم لأجد أين تسكن، عليّ أن أسأل الناس والذهاب للبحث وإيجاد المنزل..." وحاول هو أن يعثر على طرقٍ أخرى للتعبير عن ضخامة المهمّة.

"حسنًا حسنًا. هنا أربعمائة،" قال ويليام مضيفًا إلى الأوراق النقديّة. "افعلها اليوم. وأبلغني إن كانت قادمة غدًا."

أخذ مصطفى الأوراق وطواها في النّصف. المباراة. زجاجة كوكا كولا. تبسّم، وحشا الأوراق بحذر بين عظم وركه والشريط المطّاطي لسرواله الداخليّ. فهو لا يثق بجيوب الشورت الذي يرتديه، ولا بثقوبه الفاغرة.

"سأذهب بعد انتهائي من العمل هنا،" قال. ربّت ويليام على كتفه وعاد إلى المكتب.

كان مصطفى يجرّ إحدى الأسرّة نحو الشرفة عندما سمع خبطات عالية عند البوّابة. استمرّ بسحب السرير إلى أن أصبح تحت ظلّ سقف القشّ، بالتوازي مع أرجوحة الهاماك معلّقة بين عمودين مصنوعين من جذوع الشجر. عندما رجع إلى

مفردات
Mophradat

المنطقة المضاءة رأى ويليام واقفًا بمحاذاة البوابة. سمع أصواتًا بشريّة لكنّه لم يتمكّن من رؤية الشخص من الجهة الأخرى من الباب. فتح ويليام البوابة أكثر ودخل ثلاثة رجال يحملون رزمة ثقيلة ملفوفة بالخيش. رجال نيليّون، طوال القامة وداكنو البشرة مثل ويليام، يرتدون صُدرًا مغبرّة وتيشيرتات وسراويل بطول الرّكب.

تحدّث ويليام معهم بالنيليّة ووجّههم إلى منتصف الباحة، بقرب السرير. أنزلوا الرزمة ووضعوها على الأرض. وقرفصوا فوقها. تحدّث أحدهم وهو يشير إلى موقع وراء الحائط، كلماته تتجسّد عبر يديه اللّتين ترفرفان وتخفقان نحو الأعلى لترسما مشهدًا ما. وجلس الرجلان الآخران بهدوء، يستمعان ويومآن برأسيهما بين الفينة والأخرى.

عندما دخل أليكس الباحة ناداه ويليام. فتح أحد الرجال أعلى الخيش. لم يتمكّن مصطفى من رؤية الموجود في داخلها. اتّسعت عينا أليكس وشحُب وجهه فجأةً. غطّى ويليام فمه وأنفه وأرجع رأسه إلى الخلف. مشى مصطفى نحو المجموعة. عبق الجوّ برائحة عذبة ومتعفّنة. خرجت دينا من المطبخ وهي تنشّف يديها بفوطة المطبخ.

"ما الأمر؟" نادت في طريقها إليهم. حشر مصطفى نفسه بين أليكس وويليام. في هذه اللحظة كان أحد الرجال النيليّين يزيل الخيش، يرفع الزوايا بحذر. تراجع الرجلين الواقفين من الجهة الأخرى من الرزمة فيما فتح الأوّل القماش على وسعه.

ستصدر هذه الرواية بالإنجليزية بعنوان *Ghost Season: A Novel*، عن دار النشر «و. و. نورتن» *(الولايات المتحدة وكندا)* في كانون الثاني /يناير ٢٠٢٣.

فاتن عبّاس روائيّة نُشرت كتاباتها في «غرانتا» و«فريمانز» و«ذا واريك ريڤيو» وغيرها، فيما نُشرت كتاباتها غير القصصيّة والصحافيّة في «لو موند ديپلوماتيك» و«ذا نايشن» و«زايت أونلاين».

مفردات
Mophradat